القراءة والتعليم

بقلم الأستاذ المغفل محمد المغيف

يعتبر أساطين التربية القراءة وسيلة من أهم وسائل التعليم ، وهي فضلا عن أهميتها من أيسر السبل وأوضحها وأقربها وصولا إلى الغرض المنشود .

فبالقراءة تتفتح أمام المرء آفاق متنوعة من المعرفة ، وتظهر له ألوان مختلفة من الحكمة إذ بها يطلع على آراء المعاصرين والمتقدمين فيكون كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة ومن بستان إلى بستان

وكلما تقدم الانسان فى القراءة ، زادت معارفه وضوحا فى ذهنه ، وارتباطا بعضها ببعض لأن كل فكرة تلقى ضوءا على غيرها فتكشف النواحي المختلفة وتجلى المعانى الغامضة .

والعقل بهذا كله يزداد اتزانا ومقدرة على الحكم والنقد ، فانه بمقارنته بين طرق العقول المختلفة فى البرهان والحكم ، ومقدار ما فى تلك الطرق من قوة أو ضعف ومن خطأ أو صواب ؛ وبمقارنته بين رأى ورأى وبين مذهب ومذهب ، ثم بوقوفه على طائفة متنوعة من المعارف ، تهيأ له سبل الاستنتاج الصحيح والبرهان المستقيم .

هذا إلى أن الأوصاف الشائقة والأخيلة الرائعة ؛ تلهب الخيال وتصقل الذوق والآثار الوجدانية من شعر أو قصص تستثير العواطف وترقق الطباع وتكسر من شدة النفس .

وبالقراءة تقف على سير أنبيائنا الأخيار وأسلافنا الأبطال من قادة ومصلحين وفى ذلك ما فيه من تقويم الخلق واستنهاض الهمم .

والقراءة وسيلة من أهم الوسائل لخلق الرأى العام وتكييف الذوق العام فى الأمة فهى التى تقرب الأفهام وتساعد على تبادل الآراء بغاية الدقة والوضوح .

وفوق هذا تجد فى القراءة نوعا من التسلية يبهج النفس ويشرح الصدر ويصرف المرء عن مفاسد الفراغ ومساوئ الجدة وزلات الشباب ، فتسمو بذلك الروح إلى آفاق المثل وتسبح فى أجواء الطهر والنزاهة .

تلك هى أهم فوائد القراءة . ولكن هل ترى فى معرفتها ما يكون حافزا للناس إليها ؟ كلا . فالقراءة عادة يعودها الأطفال من نعومة أظفارهم ؛ فتغرس فى نفوسهم وتكبر معهم .

عرف الآباء والمربون ذلك فبرامجهم فى أوربا وأمريكا يعودون الأطفال من سنيهم

الأولى المطالعة ويحببونها إليهم بشتى الوسائل .

فى ذلك العهد يكون الطفل ميالا إلى معرفة كل شىء ، ويكون الخيال السلطان الأكبر على عقله ؛ فهو يتخيل أكثر مما يفكر ، وتلك فرصة طيبة يستغلها المربون أحسن استغلال فيعمدون إلى الأطفال طائفة من القصص تناسب أعمارهم فى عباراتها ومغزاها مطبوعة بشكل يجتذب الأطفال فتتاثر فوق صفحاتها الصور الملونة ويغلفها ورق صقيل مفعم بالزخرف والألوان ، ولذلك يلتهمها الأطفال التهاما ويقرأونها فى شغف عظيم حتى لتكاد تصرفهم عن ألعابهم ، وهكذا يتربى الأولاد بين اللعب والمطالعة منذ فجر حياتهم .

ولقد رتبت الكتب ترتيبا فنيا وقسمت إلى طوائف حسب السن ودرجة الاستعداد وبذلك فكلما تقدم الطفل فى السن ألقى إليه الكتاب المناسب ، فمن مرحلة الخيال الجامح الغريب إلى مرحلة الخيال المنظم ، ثم إلى دور الفكر والتعقل الذى تصحبه الأنغام الوجدانية الرقيقة ، حتى يعرف الصبى طريقه فيتجه الاتجاه الذى يوافق ميوله وطبعه . وهكذا تصبح القراءة عادة يصعب الإقلاع عنها .

أما عندنا فالقراءة فى أحوال كثيرة واجب لا غير أو عبء ثقيل ممقوت ، ويندر أن تجدها تباعا متصلا منتظما بل إنك لتجدها على فترات ، وفى جو مشبع بالاضطراب والسأم وسوء الفهم .

تحدث الصبى عندنا أو تشرح له درسا فإذا هو يرنو إليك بوجه تما يحيط به وحاكه معارفه بالنسبة لسنه ويصدمك تبلد خياله وسقم وجدانه ، وما ذاك إلا لقلة حصوله من القراءة ، فى حين أنك إن حدثت صبيا فى سنه من بلد تخلصت من شر الأمية ، يعجبك منه توقد خياله وبدهته وكثرة معلوماته وتجد لديه من الخبرة إن كان فى سن العاشرة متلاما لانظفر بمثله من كثيرين عندنا ممن تبلغ سنهم الثامنة عشرة

ليست أغلاط فى ذلك فحسبنا كثيرون لا يعرفون شيئا عن أبسط المخترعات أو عن المواقف التاريخية الشهيرة ؛ أو عن مشاهير الكتاب والشعراء وغيرها من المعارف الضرورية وإن كنت تشك فى ذلك فادخل فصلا من الفصول الدراسية وانظر ما فيها من قصور .

والذى نأسف له أن أطفالنا كغيرهم من الأطفال فى سائر بلاد الله يدفعهم حب الاستطلاع كما يدفع غيرهم وتتوفر لديهم الميول القطرية كما تتوفر عند غيرهم ولكنهم إذا شبوا — وأقصد المتعلمين منهم — التوت عليهم الطرق وأصبحوا فى لبس مما يدعون أو يأخذون .

أما هؤلاء المساكين الذين يتخطبون فى دياجير الأمية فلا سبيل لنا معهم إلا إنقاذهم أولا من هذا الداء العياء

إن تلك الأمية عقبة كؤود تعرض كل سبيل من سبل الإصلاح . كيف نطمع بربك فى تعويد الأطفال المطالعة ومعظم أمهاتنا جاهلات ومعظم آبائهم لا يعرفون القراءة والكتابة ؟ !.

إن عملنا إن أردنا تقرير هذه القضية سيظل قاصرا على أبناء المدارس أو بعبارة أخرى على أولئك السعداء الذين نجوا من ظلمات الأمية . وكتب المطالعة عندنا الآن ولله الحمد تخطو فى هذا السبيل خطوات مباركة محمودة . وبهذه المناسبة يسرنى أن أشير هنا إلى محاولتين حديثتين ترميان إلى تحبيب القراءة إلى الأولاد ، أولاهما تلك المجلة الجميلة الناطقة التى تصدر عن الفصول التجريبية بمعهد التربية واسمها «مصير التلميذ» وهى كفيلة باجتذاب كل تلميذ بما تحوى من موضوعات شائقة مفيدة وبالعدد الأخير منها قصة مترجمة عن الإنجليزية بقلم الأديب الكبير الدكتور محمد عوض محمد ، كم تمنيت لو أتيح لأطفالنا جميعا قراءتها وإسماع دروسهم بها ، وثانيتهما المحاولتين : تلك الأقاصيص الشائقة التى يصدرها الأستاذ كامل كيلانى خاصة بالأطفال.

ولكن هل يكفى ذلك لتكون القراءة عندنا أداة لإصلاح المجتمع وتوجيهه فى مجموعه وجهة خاصة يظهر فيها ذوقه العام ورأيه العام ؟

الواقع أننا سنظل بعيدين عن هذا مادامت الأمية فاشية أطفارها فى البلاد وإن اليوم الذى يتمتع فيه أبناء الأمة شعورا موجدا لهو اليوم الذى تتعدم فيه الأمية

لست أقصد أن يصبح الناس جميعا فلاسفة ، إنما أقصد أن يتمتع أبناء الأمة جميعا بقسط من الثقافة ينظم حياتهم ويوحد مبادئهم . أرجو أن يكون الزارع والصانع والتاجر والخوذى من ذوى الحرفة ، ممن يستطيعون القراءة ؛ فإن هذه القراءة تفيدهم أعظم فائدة فى مهنهم ، إذ بها يعرفون أحوال مجتمعهم وينهضون بتربية أبنائهم على خير ما يرجو المجتمع ، هذا إلى ما فى القراءة من تهذيب الخلق والسمو بالنفس .

أرأيت إذن عظم المهمة التى تضطلع بها أيها المدرس ؟ ثم عن ساعديك أيها المعلم الأول الذى تحارب الأمية فأنك لنعم الله تقدم إلى بلادك خدمة تضعك فى الصف من صفوف المجاهدين

نحن الآن فى مفترق الطرق ؛ أو على أبواب عهد جديد ، وأنت الذى تضع بذور ذلك العهد المستنير ، وسيأتى اليوم الذى يعطيك المجتمع فيه حقك بعد أن عرف لك قدرك .

شمر عن ساعديك ولتكن لك من شرف مهنتك ما يعوض عليك مآكلة مرتبك ومن خطر مهمتك مايرفع بين الناس رأسك . ومن عظم مجهودك وبركة تمارك ما يعوض عليك تعبك

أيها المجاهد الهادىء الوديع ، أيها الجندى المتواضع ، تقدم فان ينكر عليك أحد شرف الانتصار إلا إذا استطاع أن ينكر على الجندى فى الصف ما يزى إليه من شرف بعد انتهاء المعركة ؟

محمود الخفيف